المحاضرة الثالثة و الرابعة : الحياة العقلية و الدينية في العصر الجاهلي

مقدمة:

يعد النص الأدبي هو نص خاضـــع للدرس و البحث و التحليل و التمحيص و التنظير على مدار الأزمنة فتعددت مناهج دراســته و دعددت حوله الرؤى و لأن البنى التي تشــكل النص الأدبي فنجد أن هذه البنية الفكرية تتميز عن باقي البنيات الأخرى كالاختلاف العرقي والجغرافي فالعربي مثلا يعبر بلغته العربية و الإنجليزي يعبر بلغته الإنجليزية وبالتالي العرق والجغرافيا تتحكمان في لغة النص أو البنية اللغوية

لكن الملاحظ أن البنية الفكرية لها مرتكزات خاصـــة تتجاوز العرق والجغرافيا فهي تنطلق من منطلقات تكوينية و هذه المنطلقات التي تكون **العقلية والشـــخصـــية** وهذه تعد طباع تتنوع بين المناخ و الظروف الاجتماعية و السياسية و المعاش و الاقتصاد وكل هذه العوامل تدخل في صناعة هذه البنية

وفي هذه المحاضـرة سـنبحث عن وعاء أو اطار يجمع هذه العناصـر جميعا فنحن كدارسـين للأدب سـنبدأ بالفكر الذي يتم دراسته في الدراسات الفلسفية و الدراسات الحضارية و الاجتماعية و الدراسات النفسانية و ســنحاول ان نتوقف عند هذه المســتويات جميعا ، فالأفكار أو البناء الفكري أدانه الفكر الذي هو جانب من جوانب العقل الذي يتجسد في سلوكات و تحركات الشخص الذي يكون له هيكله و بنيته التي تميزه عن غيره من البشـر سـواء الذين يجالسـونه أو الذين يختلفون عنه (يعايشـونه أو ينصـرفون عنه) وحتى نضـع اطار لهذا الفكر الذي يطلق عليه العقلية العربية و هذه العقلية لها وعاء و اطار يطلق عليه مصـــطلح الشــخصــية فيمكن أن نقول شــخصــية فاطمة و الشــخصــية العربية التي تطلق على جماعة تربط بينهم مجموعة قيم ، ومبادئ وصـفوة القول أنه أذ ما أردنا التوقف عند بنية النص الأدبي التراثي لابد من التطلع الى معرفة المحيط بمعالم العقلية و الشخصية.

العقلية العربية قبل الاسلام :

تعد العناصر التي تضافرت فيما بينها و صبغت هذه العقلية و أفرزت هذه الشخصية التي تجسدت في في مجموعة ســلوكات و مجموعة توجهات و رؤى التي تمحورت فأصــبحت تقاليد و أعراف لتميز هذه الجماعة البشــرية عن غيرها ، ومن ثمة فان العقلية العربية ليســت مطابقة للعقلية الفارســية و لا الرومانية و لا العقلية الزنجية و لا الافريقية ...

فالعقلية العربية لها معالم و لها مميزات و عناصـر تقوم عليها صـنعتها عناصـر متوافرة من التاريخ و العادات و التقاليد وبالتالي هي نتيجة لتراكم السـلوك، فيصـبح تقليدا و عادة، و بمعنى أوضـح السـلوك الفردي الذي يتكرر شـيئا فشـيئا فيصـبح تقليدا في قارة أو بلد ما وبالتالي كل نص أدبي عربي يتضـمن بنية فكرية هو نتاج لجماعة من الناس يعرف بالمجتمع هذا الأخير الذي له مواصــفات و عناصــر و له مكونات وحتى نصـل الى هذه البنية لابد من أن نعرف هذه المكونات و هذه الشـخصـية وكل هذه افرزت ظواهر سياسية و حضارية حيث اندمجت هذه الظواهر في نسيج النص

عناصر تكوين العقلية العربية والشخصية:

العنصر الجغرافي:

تدخل الجغرافيا في صناعة الشخصية والعقلية فالإنسان اذ عاش في محيط جغرافي سهبي بسيط ، مريح انعكس ذلك على شخصيته و عقليته فجاءت عقليته سهلة، ناعمة بعيدة عن الجهد والمشقة ، إما إذا عاش في بيئة قاسية فتطبع شخصيته وعقليته بتلك القسوة فينشأ على القسوة والعنف فتؤدي الى مواجهة الشدائد كسان الجبال الوعرة والصحاري و سكان السهول المعشوشبة فهؤلاء الناس ينقسمون من حيث شخوصهم وعاداتهم وتقاليدهم الى هذه البيئات الثلاثة و مجمل المعنى أن الشخص تتدخل البيئة الجغرافية في تكوينه عقليا وفكريا وسلوكيا.

العنصر التاريخي والأخلاقي:

تنشأ شخصية الانسان السوية في بيئة مسالمة وتتأثر بظروف تلك القبيلة إذ ما كانت في محيط لا يسوده الأمن والسلم كما هو الحال عند الجاهليين الذي عاشوا في تناحر وحروب وذلك راجع الى شخصيتهم المجبولة على العنف و القتال فتوارثوا ذلك أبا عن جد فالعامل التاريخي يصقل شخصية الانسان

الحياة الاجتماعية في البيئة الجاهلية قبل الإسلام:

القبيلة العربية الجاهلية كانت تنقسم الى ثلاث طبقات

1_ طبقة الأبناء برابطة النسب والدم وهم عمادها وقوامها

2_ العبيد كو نهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية وخاصة الحبشة

3_ الموالي و هم عشقاؤها ويدخل فيهم الخلعاء الذي تخلعهم القبيلة فيعلن خلعه صراحة وأمام الملأ في الأسواق و المجامع العربية ، فيستجير هذا الخليع بقبيلة أخرى فتجيره وقد يكون عابر سبيل لا دار له ولا وجهة فيستظل بظل هذه القبيلة وتضمن له حق التوطن في القبيلة الجديدة ، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها مثله مثل أبنائها مثل الصعاليك الخلعاء الذي يهيمون الصحراء على وجوههم بطشا ولصوصية بقط الطريق مث طأبط شرا والسُّليك ابن السّلكة ، والشنفرى ن لكن عروة بن الورد الصعلوك الذي يبقى في قبيلته وأُثر عنه أنه ذو فضل إذ كان يجمع خيمته فقراء قبيلته و معوزيها ويتخذ لهم حضار تأويهم "[1] ونتيجة لهذه الطبقية برزت خصال تميز كل طبقة عن الأخرى لتكون في الأخير الطبع العربي مثل الجود ورحابة الصدر و المروءة وحماية الجار وتعد صفة الكرم هي من أعلى درجات الفضيلة عندهم والتي ولدتها ظروف الصحراء القاسية التي كان يميزها الِاجداب فكان الغني يتصدق على الفقير كأن يذبح ناقته الوحيدة في أيام الجفاف للإطعام قبيلته وكان العرب يشعلون النار في أعالي الجبال ليهتدي على ضوئها التائه والغريب والضال فتأمنه القبائل و تضِّيفه حتى ولو كان من الأعداء ومن بين من أشتهر بالكرم أيام الجاهلية **حاتم الطائي** الذي كان يضرب به المثل حيث قال أحد الشعراء فيه:

إذا ما بخيلُ الناس هرَّت كلابه و شقَّ على الضيف الغريب عَقورُها

فإنى جبانُ الكلب بيتى موطَّأُ جوادٌ إذا ما النَّفسُ شحَّ ضميرها

[1] ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب الجاهلي ، ص76.

فالكلاب التي تنبح عند مجيء الغريب الى ديارها لدلالة على بخل صاحبها لأن الكلاب التي ألفت الضيف هي دار كرم وجود صاحبها .

_أما الوفاء كان من أهم ما يقدره العرب فاذا أوفى العربي بوعد ا,فت معه قبيلة بأكملها فيجيرون من استأجر بهم خاصة الوفود التي يعدونها بالنصرة فجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف كاستنجاد امرؤ القيس بالروم لما قتل اباه

عدم قبول الهوان: تميزت العرب بأنها تقوم ثائرتها اذ ظلم أحد في قبيلتها وشعر بالضعف والهوان وأحسن شاهد على ام عمرو بن كلثوم امام الطاغية عمرو بن هند لما أراد التنكيل بكرامة أمه في بلاطه وقد صاحبها الى هناك فاستل سيفه وقتل عمرو بن هند وبقيت تغلب تتغنى وتفخر بهذه الحادثة أياما وسنين طوال .

وبالرغم من هذه الخصال الحميدة والفضائل المجيدة التي كانت منتشرة بكثرة الجاهلية ألا أن السلوكيات السلبية كانت كذلك منتشرة وبكثرة كشرب الخمرة على العلن والتي كانت تضرب لها الخيام وترفع فوقها رايات تدل عليها حتى يهتدي اليها الشباب وصاحباتهم والجواري والقيان الغير المتعففات لممارسة كل فعل مخل بالحياء حتى أصبحت القبائل تتبرأ من تلك الفئة المتمردة أخلاقيا وقال في ذلك طرفة بن العب[2]د:

وما زال تَشْرابي الخمورَ و لذتي و بيْعي و إنفاقى طريفى و و متْلدى

الى أن تحامتني العشيرة كلها و أُفْرِدْت إفراد البعير المعبّد

....

فمنهن سَبق العاذلات بشربةٍ كميت متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ

أما مكانة المرأة عند الجاهليين فظهرت جلية في وصفهم الجسدي و المعنوي لها وقد تغنوا بجمال عيونها وسواد شعرها و تراص أسنانها وبياضها و طيب عشرتها وعفتها و ثقتها وهي المصونة للعرض والشرف اذ ما غاب عنها زوجها لأجل حرب او سفر بعيد فيقول في هذا امرؤ القيس [3]:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسِقط اللوى بين الدَّخول فحومل

المعيشة:

لم تكن العرب الجاهلية على حال واحد من المعيشة فمنهم من يقتات على الزراعة في الجنوب والشرق وفي واحات الحجاز وأهل السواحل يعيشون على الصيد كذلك كان أهل مكة قد اهتموا بالتجارة والبيع والشراء وقد كانت بها الكعبة حيث يحج الناس الى اصنامهم فيعبدونها فكانت قريش تقيم لهم الأعياد والأسواق كسوق عكاظ وهو اكبر الأسواق التجارية كما كان مجمع الشعر والخطابة وقد استمع **الرسول صلعم الى قسٌّ بن ساعدة الايادي** و هو يخطب في الناس وكانت من أجود الحطب بيانا و فصاحة "أيها الناس اسمعوا وعوا ...." وقد كانت تقام للنابغة الذبياني قبة يقعد اليها ويأتيها الشعراء من كل جهة و صوب يعرضون شعرهم فمن أشاد به طار اسمه كما تدفع الديات و يفتدى فيها الاسرى و تقام فيها المفاخرات و المنفرات فعكاظ

---

[2] طرفة بن العبد: الديوان

[3] امرؤ القيس: الديوان

كانت بمثابة مؤتمر كبير للعرب وقد بين أن أهل مكة في أغلبهم أثرياء وفي الوقت نفسه توجد طبقة الفقراء الصعاليك فعاش العرب في الصحراء منقسمين بين اهل زراعة و بداوة وحياة بسيطة وبين حياة تجارة و تبدل وتطور ولكن في تلك الحياة الصحراوية البسيطة كان الجاهلي يعيش صعاب الطبيعة و مفترسي الحيوانات الوحشية و ندرة الامطار وجفاف الأرض و تسلط الصعاليك واللصوصية فالعربي نشأ يصارع من اجل البقاء مما صقل طباعه على القوة و الشراسة والفطنة طوال الليل .

تأثير الحياة العقلية والدينية في العصر الجاهلي على الأدب:

يعتبر العلم والمعرفة أمر مغيب عند العرب في الجاهلية ولاسيما عرب نجد والحجاز الذين لم يعرفوا شيئا من هذا وذلك بسبب عدم استقرارهم ، لأن العلم يثبت في شعب مستقر مكانيا ، حتى يتسنى له الاعتكاف على دراسة الحياة و استنباط الحقائق منها من اجل ربك الدال بالمدلول والمعلول بالعلة، وبدون هذه الحقائق لا يستطيع العقل استخدام المنطق الذي يضبط حركته و ينتظم تفكيره وإلا بقي تحت تأثير التفسير الاعتباطي الخرافي و التفسيرات البدائية الساذجة.

وبالرغم من هذا فقد وقف الجاهليون على بعض المعارف ، تحصلت لهم من التجربة والمعاينة فعرفوا أشياء عن النجوم و مواقعها ، وسخّروا معرفتهم لهداية قوافل التجارة ، وأطالوا النظر في السحب ، وتتبعوا تقلب الأنواء ، واستنبطوا من مشاهداتهم أمورا كثيرة أفادتهم في معرفة الرياح و الامطار و دفعتهم الحاجة الى دراسة الأعشاب و النباتات و الحيوانات ، وأفضت بهم هذه الدراسة الى الوقوف على طائفة من حقائق الطب و التداوي بالعسل و عصارة الأعشاب و معالجة جراحهم عالجوا حيواناتهم ونوقهم و خيولهم بالكي كذلك من المعارف التي تشهد لهم بالذكاء و دقة الملاحظة الفَراسة و هي معرفة بأخلاق المرء من خَلْقه و هيئته، والقِيافة و معناها معرفة الناس من آثار أقدامهم و اختلطت هذه المعارف بأباطيل منكرة كالكهانة التي يدعي مدّعوها معرفة الغيب ، و الزّجر و الطّرق بالحصى و فحواها تنفير الطائر بحصاة يرميها الأعرابي ، فاذا اتجه الطائر الى اليمين تفاءل الرامي و اذا اتجه الى اليسار تشاءم، ووعت ذاكرتهم أخبار الآباء الأجداد، وشيئا من أخبار الروم والفرس ، غير أن اعتمادهم على الحافظة عرض محفوظهم للنسيان و الخطأ ، لامتزاج الخبر الصحيح بالأسطورة المختلفة و سلمت من هذا التخليط أنسابهم التي حرصوا أشد الحرص على حفظها ، والاعتزاز بنقائها **ابن فارس: «وللعرب حفظ الأنساب ،و ما يُعلم أحدٌمن الأمم عني بحفظ النسب عناية العرب"**

على أن الجاهليين لم يكونوا متعصبين للأوثان ، ولم يعتقدوا أنّها الخالقة المدبرة للكون و لأمور الناي وانما هي طبقة من الوسطاء تقرب الناس الى الله ، وربما كانت الوثنية بقية دين قديم يدعو الى التوحيد ، ثم آل التوحيد الى شرك لافتراق القبائل ، واستقلال كل قبيلة بوثن وصنم.

و الى جانب الوثنية و الوثنتين ظهرت جماعة قليلة عاقلة انتبذت الأصنام و آمنت بإله واحد قادر إيمانا قلبيا لا ترفده رسالة سماوية ، ولا ترسّخه عبادة و شعائر، وسُميّت هذه الجماعة (الحنفاء)، ويغلب على الظن أنها البقية الباقية ممن كانوا على دين إبراهيم عليه السلام.

وعرف العرب اليهودية والنصرانية، وعبادة الكواكب التي سمي القرآن من يعبدونها (الصابئين) وبالرغم من هذه الديانات الا ان الوثنية كانت اكثرهم انتشارا وذيوعا

وخلاصة القول :

لم يكن للعرب قبل الإسلام معتقد ديني واحد ، بل دانوا بعقائد متباينة ، ولعل الوثنية كانت أوسع أديانهم انتشارا ، فقد أصبحت مكة مسترقها و مجمع الأصنام و الأوثان التي يقدسونها ، ويقربون القرابين لها، و يتعبدونها و يتسمون بالعبودية لها ن كعبد يغوث ، وعبد العزّى ، وعبد مناة ، ويبدو أن المكيين كانوا أشد احتفالا بها من سواهم ، إذ اتخذوا وثنيتين : وثنية رسمية معبدها الكعبة التي تضم أشهر آلهتهم ، ووثنية خاصة لها في الدُّور أصنام تتعبدها الأسر وتحوطها بالإكبار .

كيف اثرت العقلية العربية قبل الإسلام والمعتقدات في الادب العربي؟

كان العربي بعقله البسيط يصل الى الحقائق عن طريق الجوارح وذلك بحكم حياة الترحال التي فرضت على العقل البشري أن لا يخمن بمنطق في البحث عن الحقيقة كما العقل في الشعوب والحضارات القديمة المتحضرة لأنها شعوب مستقرة وآمنة مما منحهم (الرويّة والاستقصاء في الانتقال من الكلي الى الجزئي) وبالرغم من هذا استطاع العقل البشري العربي ان يلخص تجارب حياته الصعبة في انتاج الامثال والحكم والوصايا و الخطب و القصائد فأصبحت هذه الفنون مصبوغة بطابع عقلي عميق لكنه لا يرقى الى مستوى الفلسفة النظرية المتكاملة التي تبحث في مظاهر الوجود استنادا الى المنطق المشفوع بالبراهين ن لتصل الى حقائق مجردة ، ولتضع نظاما متماسكا يفسّر مظاهر الوجود.

ومن بين أبرز من كانوا أهل تعقل و نظرة حصيفة منهم طرفة بن العبد و أكثم بن صيفي ، وزهير بن أبي سلمى و الأحنف بن قيس، وعدي بن زيد ...وكانت أشعارهم انعكاسا لشخصيتهم وتجاربهم الحياتية و كان تعبير طرفة بن العبد من أصدق التعبيرات الشعرية التي عبرت عن العقلية العربية الجاهلية فهو صاحب العقل الراجح والمذهب الواقعي الرصين.

كان للعرب دين ولكن دين ضعيف لا يخلصون له ، ولا يصل الى أعماق نفوسهم و من الديانات التي انتشرت في الجزيرة العربية اليهودية ، والنصرانية في بلاد الحيرة ، و في غساسنة الشام ، واليهودية في اليمن و كان أشهر مراكز النصرانية في اليمن مدينة نجران و كان القيسيسون و الرهبان يذهبون الى الأسواق و يبشرون بديانتهم ، **وأشهرهم قس بن ساعدة صاحب الخطبة الشهيرة والمشهورة (أيها الناس اسمعوا و عوا، من عاش مات، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آتْ، ليل داجن ونهار ساج)** وقد عمر طويلا ومات قبل البعثة ، وهو أول من خطب و تسود القبيلة عصبية مفرطة فكل فرد يتعصب لقبيلته ويعنى بنسبه و يحافظ عليه ويذود عن حمى قبيلته سواء كانت على حق أو باطل

الحصة التطبيقية الحرب والسلم في معلقة زهير بن أبي سلمى .

حياته :

تذكر كتب الانساب نسبا مطولا لزهير بن ابي سلمى خلاصته انه مُزنيّ الأب ، ذبياني الأم ، اسم أبيه ربيعة بن رباح ، وكنيته أبو سلمى ، أما أمه فهي أخت الشاعر بشامة بن الغدير ، وهي من بني سهم بن مرة الذبيانيين ثم الغطفانيين.

قصة هذه الحرب ان قيس بن زهير العبسي راهن حذيفة بن الفزاري الذبياني على سباق داحس و الغبراء وهما من خيل قيس والخطّار والحنفاء وهما من خيل حذيفة ، وتواضعا على ان يكون مدى السباق مائة غلوة بمعنى 12أو 18كم بعد تضمير الخيل أربعين ليلة "وأقام حذيفة رجلا من بني أسد في الطريق، وأمره أن يلقي داحسا في الطريق فان جاء سابقا ردّ وجهه عن الغاية

وكان له ذلك مما أدى الى جعل فرس داحس وفارسه قد سقط في الماء وكادا ان يغرقا ولم يخرجا وقد فاتتهم الحرب، واما راكب الغبراء فانه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ، ثم عاد الى الطريق ، وأجتمع مع فرسي حذيفة ثم سقطت الحنفاء و بقي الخطّار والغبراء ثم ان الغبراء جاءت سابقة و تبعها الخطّار ثم

الحنفاء ثم جاء داحس بعد ذلك و الغلام يسير به على رسله و أخبر الغلام قيسا بما صُنع بفرسه ولكن حذيفة انكر ذلك وادعى السبق ظلما و قال :" جاء فرساي متتاليين و مضى قيس و أصحابه حتى نظروا الى القوم الذين ضربوا داحسا و جاءه الأسدي نادما على ضرب داحس و أعترف لقيس بما صنع ، وبما أمره به حذيفة" وأبى بن فزارة الذبيانيون ان يدفعوا خطر الرهان و هو عشرون جملا و ادعوا انهم السابقون و لج حذيفة في ظلمه فطعنه فدق صلبه و عادت فرسه الى ابيه عائرة و نادى قيس :" يا بني عبس الرحيل فرحلوا كلّهم" وعلى هذا الأساس بدأت الحرب بين عبس و ذبيان واستمرت مطولا و اقتتل فيها الفرسان بين القبيلتين وحتى الشعراء كعنترة بن شدادوقيس بن زهير ... وبعد حرب طاحنة وصلوا الى دفع الديات من أجل حقن الدماء وأكبر الساعين في الصلح هو الحارث بن عوف و هرم بن سنان.

التعريف بزهير بن أبي سلمى: عايش زهير حرب داحس والغبراء فتأثر بأحداثها الدامية مما جعله يفكر تفكيرا عقلانيا في أمور الحياة فاقتاد الى التخلي عن الحمية الجاهلية فآثر الجدّ على اللّهو و الحلم على السفه ونبذ الشهوات التي تؤدي به الى سوء الخلق بل بالعكس كان ذو أخلاق عالية كارها عجرفية البداوة كان متواضعا في فخره أو وصفه وقال الألوسي عنه: "أن عقله الراجح أفضى به الى الايمانعى نحو غامض بالبعثو بقدرة الله على احياء الموتى فكان إذا مرّ بشجرة أورقت بعد يبس قال:" لولا أن نسبني العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد يبس سيحي العظام وهي رميم"

ديوان زهير ومعلقته:

له ديوان ضخم شرحه العلماء قديما و نشر حديثا من قبل الكثيرين من العرب و العجم و أول من نشره وليم بن الورد أول ناشر به من الأجانب سنة 1770 أما معلقته حوالي تسعة وخمسين بيتا وفق روايتها في شرح التبريزي و اثنين وستين بيتا وفق روايتها في شرح الزوزني

ويبدأها زهير بالبكاء على الأطلال في مقدمة طلليه :

أمِنْ أمْ ْ أوْفى دِمْنة لمْ تَكْلَم بحُومانة الدُّراج، فالمُتلثّم

يصف زهير أثار الديار و مرابض الظباء التي ألفتها بعد هجران أهلها لها ، ويرسم صورا لحجارة المواقد السوداء، والنؤي المتهدم، ويختم هذا القسم بالتحية على الدار بعد أن تعرّفها.

والقسم الثاني و أبياته تسعة ، وصف مضمّخ بأسلوب قصصي ، يعرض فيه الشاعر مشهد الضعائن ، وهنّمتهاديات فوق الهضاب ، وعلى سفوح الجبال، وقد بانت عليهن أمارات الترف ، حتى لأصبح منظرهن نزهة للبصر وكنّ في أثناء سيرهن ينثرن قطع الصوف الأحمر ، وهن يسرن الى الماء ، فلما بلغنه أصبن منه ، ثم رحلن مرة أخرى عابرات السوبان بهوادجهن الزاهية .

والقسم الثالث كان أطول الأبيات ويضم مواضيع متنوعة فيها المدح كمدح هرم بن سنان و الحارث بن عوف قائلا :

يمينا لَنِعْمَ السّيدان وُجِدْتُما على كل حال من سحيل وَ مُبْرَمِ

وهذا البيت يذكر فيه زهير ما قام به الرجلان الكبيران من إعادة السلم الى عبس و ذبيان، ويطلب من بني ذبيان المتحالفين على إقرار السلم أن يحققوا ما تحالفوا عليه.

ثم يليه وصف لجرائم الحرب بخمسة ابيات و يهجو حصين بن ضمضم ببضعة ابيات فاذا فرغ منه عاد الى المدح الذي شرع فيه.[4]

[4] المرجع السابق ، غازي ظليمات : الأد الجهلي ، اغراضه وقضاياه ، ص